

المجموع القيم من كلام
شيخ الإسلام وابن القيم
تأليف
محمد السليمان العليط
مصدر هذه المادة :
الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com
قسم النوادر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فهذه نبذة يسيرة من ترجمة الشيخ الإمام شيخ الإسلام أحمد ابن تيميه: هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن مجد الدين عبد السلام بن محمد بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيميه رحمه الله ولد بحران يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول سنة ستمائة وإحدى وستين هجرية.

وقد نشأ الشيخ رحمه الله في حجور العلماء راتعًا في رياض التفقه متلاهيًا عن الدنيا ومتقللاً منها، وكان يحضر المدارس في صغره ويناظر ويفحم الكبار وأفتى وله تسع عشرة سنة أو أقل وكان غاية في الذكاء.

وانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وتضلعه من علم الحديث وحفظه حتى قالوا: كل حديث لا يعرفه شيخ الإسلام فليس بحديث.

وصنف الكثير من الكتب:

قال الذهبي: إن مصنفاته أربعة الآف مجلد.

ونقل الشيخ عبد الرحمن بن قاسم إن مصنفات الشيخ أكثر من ستة آلاف مجلد.

وكان رحمه الله ربع القامة كأن عينيه لسانان ناطقان.

وقال الذهبي لو حلفتُ بين الركن والمقام أني لم أرى مثل الشيخ و لم يرى هو مثل نفسه لم أحنث.اهـــ من العقود الدرية.

وكان رحمه الله يقول: إذا أشكل علي مسألة ووقف خاطري استغفر الله ألف مرة أو أكثر حتى ينشرح صدري وينحل الإشكال، وأكون في الطريق ولا يمنعني ذلك من الذكر.أ.هـــ من الاقتفاء.

وقال ابن القيم رحمه الله:

واقرأ كتاب العقل والنقل الذي	ما في الوجود لـــه نظـــير ثـــان
وكـــذاك منـــهاج لـــه في رده	قول الروافض شـــيعة الشـــيطان
وكذاك أهـــل الاعتـــزال فإنـــه	أرداهـــم في حفـــرة الجبـــان
وكذلك التأسيس أصبح نقضـــه	أعجوبـــة للعـــالم الربـــان
وكذاك أجوبـــة لـــه مصـــرية	في ست أســـفار كـــتبن سمـــان
وكذا جواب للنصارى فيه مـــا	يشفي الصدور وإنـــه ســـفران
وكذاك شرح عقيدة للأصـــبهاني	شارح المحصـــول شـــرح بيـــان
فيهـــا النبـــوات الـــتي إثباتها	في غايـــة التقريـــر والتبيـــان
وكذا حدوث العـــالم العلـــوي	والســـفلي فيـــه أتم بيـــان

وكذا وقاعـــد الاشـــتقاق إنهـــا ... سفران فيمـــا بيننـــا ضـــخمان

وكذا توحيـــد الفلاســـفة الأُلى ... توحيدهم هو غايـــة الكفـــران

وكـــذاك تســـعينية فيهـــا لـــه ... رد على مـــن قـــال بالنفســـان

وكذا قواعـــده الكبـــار وإنهـــا ... أوفى من المـــائتين في الحســـبان

وكـــذا رســـائله إلى البلـــدان ... والأطراف والأصحاب والإخوان

وكذا فتـــاواه فـــأخبرني الـــذي ... أضحى عليها دائـــم الطوفـــان

بلغ الذي ألفاه منـــها عـــدة الأ ... يام مـــن شـــهر بـــلا نقصـــان

سفر يقابل كـــل يـــوم والـــذي ... قد فاتني منـــها بـــلا حســـبان

ومما قيل في مدح الشيخ: ما قاله أبو المظفر يوسف بن محمد

أبدي أصول الهدى للناس واضحة ... كالبدر حين تجلى وسط غيهبـــه

حوى العلوم مجـــدًا في تطلبـــها ... إذ غيره المال أضحى جل مطلبـــه

إمام صدق له في العلـــم مرتبـــة ... سمـــا بمعجمـــه فيهـــا ومعربـــه

فشيخنا تـــرك الـــدنيا وزينتـــها ... وخصمه من هواهـــا في تعذبـــه

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك: وقال: المحبوس من حبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه.

ذكر وفاته رحمه الله:

وكانت وفاته سحرًا ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

وتسامع الناس بذلك وبعضهم أُعلم في منامه: وكان رحمه الله

حين وفاته يتلو القرآن ولما بلغ ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**﴾ قبض رضي الله عنه وجمعنا وإياه في مقعد صدق عند مليك مقتدر.. اللهم صلي على محمد وآله وصحبه آمين.

وغسله جماعة من العلماء والصالحين كالمزي وغيره.

وكان يوم موته يومًا مشهودًا لم يعهد في دمشق مثله وصرخ صارخ وقال: هكذا تكون جنائز أئمة أهل السنة فبكا الناس بكاءً شديدًا.

ودفن وقت العصر وختم له ختمات كثيرة ورئيت له منامات صالحة.

وقيل إن بعض المسافرين قال نودي بأقصى بلاد الصين يوم جمعه. أن صلوا على ترجمان القرآن: أحمد بن تيمية رحمه الله فقاموا وصلوا عليه: هــ من الدرر للذهبي.

ومما رُؤي له في المنام قال ابن القيم: رأيت الشيخ بعد وفاته وسألته عن منزلته فأشار إلى علو وقال أنا فوق بعض الأكابر.

وقال أيضًا رأيت الشيخ وكأني ذكرتُ له شيئًا من أعمال القلوب فقال: أما أنا فطريقتي الفرح بالله والسرور به.أ.هــ باختصار.

وقال أيضًا أخبرني غير واحد ممن لا يُحب الشيخ أنه رآه بعد موته وسأله عن شيء في الفرائض وغيرها فأجابه بالصواب.أ.هــ من الرد الوافر.

ورآه بعضهم وكأنه يسأله فأشار له وقال اقرأ مقدمة الواسطية.أ.هـــ.

ومما رثي به بعد موته ما قاله

ابن الخضر رحمه الله

لقد عذبوا قلـــبي بنـــار المحبـــة وذاب فؤادي من فراق الأحبـــة

فقدتُ إمامًا كان بالعلم عـــاملاً وكان حقيقاً قامعًا كـــل بدعـــة

شجاع هُمام بـــارع في صـــفاته يروم مرامًا في المراقـــي العليـــة

وإلى أن قال:

لقد عشتَ محبوبًا ومت مكرمًـــا عليك من الرحمان أزكـــى تحيـــة

وبعـــد فللـــه المحامـــد كُلـــها على ما أرانا من وضوح المحجـــة

وقال بعضهم أيضًا يرثيه:

دموعي على صحن الخـــدود تســـيل وصـــبري قصـــير والغـــرام طويـــل

على فقد من قد كان للدين ناصـــحًا وكافح أهل الشـــرك وهـــو فضـــيل

لفقد تقي الـــدين ضـــاقت مـــذاهبي وفي زهـــده شـــرح هنـــاك يطـــول

وكان على حكـــم المهـــيمن صـــابرًا وفي كل مـــا يُلقـــى إليـــه حمـــول

بشرع رسول الله قـــد كـــان قائمًـــا وعن ســـنة الرحمـــان لـــيس يحـــول

لقد بكـــت الـــدنيا حقيقًـــا لفقـــده ويبكيـــه علـــم نـــافع وأصـــول

وفي موتـــه دُقـــت بشـــائر رحمـــة أتـــاه مـــن المـــولى رضـــا وقبـــول

عليـــه ســـلام الله مـــا لاح بـــارق وما سار غيث بالسماء هطـــــول

ونسأل الله العظيم الكريم الكبير السميع البصير الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ذا الجلال والإكرام الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد القوي العزيز، أن ينصر دينه وشرعه وأن يعيد للمسلمين عزهم ومجدهم وينصر ولاة المسلمين ويجعلهم نصرة لدينه وشرعه، إنه على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه وأزواجه.

ذكر شيء من ترجمة شمس الدين ابن القيم

هو العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب بن سعد الزرعي، ثم الدمشقي الفقيه الحنبلي المفسر الشهير بابن قيم الجوزية قال ابن رجب: ولد شيخنا سنة إحدى وتسعين وستمائة: ولازم شيخ الإسلام وسمع من شهاب الدين النابلسي، والقاضي تقي الدين سليمان، وفاطمة بنت جوهر، وعيسى المطعم وجماعة.

قال الذهبي:

عني بالحديث ومتونه وكان يشتغل بالفقه: وقد حبس مدة لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل، وحبس مع الشيخ في المرة الأخيرة بالقلعة منفردًا.أ.هـــ.

وقال ابن رجب: كان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكسار له والانطراح بين يديه على

عتبة العبودية، لم أشاهد مثله في ذلك رحمه الله.

وأخذ عنه العلم خلق كثير في حياة شيخه إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وقال برهان الدين:

ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه، وصنف تصانيف كثيرة جدًا في أنواع العلوم.

وفاته رحمه الله:

توفي وقت العشاء الآخرة ليلة الخميس الثالث والعشرين من رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

وصلى عليه بالجامع بعد الظهر ثم بجامع جراح وشيعه خلق كثير ورؤيت له منامات حسنة.

فمنها أنه لما رأى الشيخ في المنام وأخبره بمنزلته ثم قال له، وأنت كدت تلحق بنا، ولكن أنت في درجة ابن خزيمة رحمهم الله وعمنا معهم برحمته التي وسعت كل شيء وهو أرحم الراحمين.

وقال رحمه الله لما ذكر صفة الجنة وما فيها من أصناف النعيم والحبرة تالله لقد نودي عليها في سوق الكساد فما قلّب ولا استام إلا أفراد من العباد.

شعر

ومــــا ذاك إلا غــــيرة أن ينالهـــا ... سوى كفئها والرب بالخلق أعلم
وإن حجبت عنا بكــل كريهــة ... وحفت بما يؤذي النفوس ويــؤلم
فلله ما في حشوها مــن مســرة ... وأصــناف لــذات بهـا يتــنعم
ولله برد العــيش بــين خيامهـا ... وروضاتها والثغر في الروض يبسم
ولله واديها الذي هو موعد المــز ... يد لوفد الحب لو كنــت منــهم
بذيالك الوادي يهــيم صــبابة ... محب يــرى أن الصــبابة مغــنم
ولله أفـــراح المحـــبين عنـــدما ... يخاطبهم مــن فــوقهم ويســلم
ولله أبصـــار تـــرى الله جهـــرة ... فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم

إلى أن قال:

فبينا هم في عشهم وســـرورهم ... وأرزاقهم تجري عليهم وتقســم
إذا هم بنور ساطع أشرقت لــه ... بأقطارهـــا الجنـــات لا يتـــوهم
تجلى لهم رب السماوات جهـــرة ... فيضحك فوق العرش ثم يكلــم
سلام عليكم يسمعون جمـــيعهم ... بـــآذانهم تســـليمه إذ يســـلم
يقول سلوني ما اشتهيتم فكل ما ... تريدون عندي إنني أنـــا أرحـــم
فقالوا جميعًا نحن نسألك الرضى ... فأنت الذي تولي الجميل وترحم
فيعطيهم هذا ويشـــهد جمعهـــم ... عليـــه تعـــالى الله فـــالله أكـــرم
فيا بائعًا هذا بـــبخس معجـــل ... كأنك لا تدري بلى سوف تعلم
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كُنت تدري فالمصيبة أعظـــم

فهذا آخر ما تيسر جمعه من ترجمة هذا العالم الجليل رحمه الله ورضي عنه والله المسؤول أن يرزقنا محبته ويجمعنا به في دار كرامته آمين وصلى الله وسلم على أشرف خلقه محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنه لما كان كلام شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله في تقرير الدين والذب عنه وجهاد أهل البدع في الغاية القصوى والذروة العليا، سنح لي أن أجمع شيئًا من فوائد كل منهما وغرر فوائدهما مبتغيًا بذلك وجه الله تبارك وتعالى والزلفى لديه وهو القريب المجيب.

وسميته المجموع القيم من كلام شيخ الإسلام وابن القيم، وهو مجموع فريد في فنه لأن على كلامهما نور وحلاه، وفيه نقط عجيبة لا تكاد تحصل إلا مع المطالعة الشديدة.

وقد طبع ثاني مرة. وزدنا عليه في هذه الثالثة من كلام الشيخ أيضًا زيادة تعجب الناظر وتسر الخاطر ولله الحمد والمنة.

ونسأل الله بعزته وقدرته أن ينفع به من قرأه أو سمعه أو نظر فيه أو ساعد على طبعه ونشره إنه سميع الدعاء وصلى الله وسلم على محمد.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

الحمد لله المستوجب لصفات المدح والكمال المستحق للحمد على كل حال لا يحصي أحد ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه بأكمل الثناء وأحسن المقال، فهو المنعم على العباد بالخلق وبإرسال الرسل إليهم وبهداية المؤمنين منهم لصالح الأعمال، وهو المتفضل عليهم بالعفو عنهم وبهدايتهم وبالثواب الدائم بلا انقطاع ولا زوال له الحمد في الأولى والآخرة، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه متصلا بلا انفصال أ.هـــ في الفتاوى.

فصل

وقال رحمه الله:

وأما النية التي هي إخلاص الدين لله فقد تكلم الناس في حدها وحد الإخلاص كقول بعضهم المخلص هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عز وجل: ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله وأمثال ذلك في كلامهم الحسن أ.هـــ فتاوى ج.

فصل

وقال إبراهيم بن أحمد الغياني خادم الشيخ:

سمعت الشيخ رحمه الله يحكي غِرِوَّه في مجالسه يقول زرت يومًا

المارستان المنصوري، فجاء إلي أناس فقالوا تصدق وزر المارستان العتيق فرحت معهم أزوره فقالوا: ألا تزور قبور الخلفاء يعنون بني عبيد فرحت معهم إلى قبورهم فوجدتها إلى القطب الشمالي، فتكلم الشيخ رحمه الله عليهم وعلى مذاهبهم فقال الحاضرون نحن نعتقد أن هؤلاء قوم صالحون؛ لأن إذا سفلت عندنا الخيل نجيء بها إلى قبور هؤلاء فتبرأ فلولا أنهم صالحون ما برأت الدواب في المغل عند قبورهم، فقلت هذه حجة على ما أقوله فيهم فإن المغل في برد يحصل للدواب، فإذا جيء بها إلى قبور اليهود والنصارى في الشام وإلى قبور المنافقين كالقرامطة والإسماعيلية والنصيرية فإن الدواب إذا سمعت أصوات المعذبين في قبورهم تفزع فيحصل لها حرارة تذهب بالمغل الذي حصل لها: وكان النبي ﷺ يومًا راكبًا على بغلته فحادت حتى كادت تلقيه عن ظهرها فقالوا: ما شأنها يا رسول الله فقال: إنها سمعت أصوات يهود تعذب في قبورها، وقال: إنهم ليعذبون في قبورهم عذابًا تسمعه البهائم.

ثم قال الشيخ فلو ذهبوا إلى قبر الشافعي وأبي حنيفة وغيرهم لم يحصل لها ذلك لأن قبورهم ساكنة.أ.هـــ من ناحية في حياة الشيخ.

فصل

وقال الشيخ أيضًا رحمه الله:

كان السلف يستحبون أن يفتتحوا مجالسهم وكتبهم بحديث «**إنما الأعمال بالنيات**» فنجري في ذلك على منهاجهم إذ كانوا أفضل جيش الإسلام.

واعلم أن فقر العبد إلى أن يعبد الله لا يشركُ به شيئًا ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه في بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب وبينهما فروق كثيرة أ.هـــ فتاوى ج.

واعلم أن كل من أحب شيئًا لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه ويكون سبب لعذابه:

مثل الذي يكنز الذهب والفضة يمثل له كنزهُ شجاع أقرع أ.هـــ فتاوى ج.

فصل

وكذلك قوله في الحديث: «عبدي مرضت فلم تعدني فيقول العبد يا ربي كيف أعودك وأنت رب العالمين، فيقول أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده فلو عدته لوجدتني عنده» فقال: «لوجدتني عنده ولم يقل لوجدتني إياه» وهو عنده أي في قلبه والذي في قلبه المثال العلمي.

وقال تعالى: «عبدي جعتُ فلم تطعمني فيقول وكيف أطعمك وأنت رب العالمين، فيقول أما علمت أن عبدي فلان جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي» ولم يقل لوجدتني قد أكلته أ.هـــ في الجواب الصحيح.

فصل مهم مفيد

قال أيضًا رحمه الله ورضي عنه:

ولا ريب أن الإيمان يحصل بأسباب مثل استماع القرآن ورؤية أهل الخير: والنظر في أحوالهم: ومعرفة أحوال النبي ﷺ ومعجزاته: والنظر في آيات الله والتفكر في أحوال الإنسان نفسه والضروريات التي يحدثها الله للعبد أ.هـــ من الفتاوى.

وقال ابن القيم رحمه الله:

وأما السلام على القبور وخطابهم فلا يدل على أن أرواحهم ليست في الجنة وأنها على أفنية قبورهم: فهذا سيد ولد آدم الذي روحه في أعلى عليين مع الرفيق الأعلى ﷺ يسلم عليه عند قبره ويرد السلام على المسلم: وقد وافق ابن عمر رضي الله عنهما أن أرواح الشهداء في الجنة ويسلم عليهم عند قبورهم كما يسلم على غيرهم كما علمنا رسول الله ﷺ أن نسلم عليهم وكما كان الصحابة يسلمون على شهداء أحد، وقد ثبت أن أرواحهم في الجنة تسرح حيث شاءت ولا يضيق عطنك عن كون الأرواح في الملاء الأعلى تسرح حيث شاءت وتسمع سلام المسلم عليها عند قبورها وتدنوا حتى ترد عليه السلام.

وللروح شأن آخر غير شأن البدن وهذا جبريل عليه السلام رآه النبي ﷺ وله ستمائة جناح منها جناحان قد سد بهما ما بين المشرق والمغرب، وكان من النبي ﷺ حتى وضع يديه وركبته على فخذيه

وما أظنك يتسع عطُنك إن كان حينئذ في الملأ الأعلى فوق السماوات حيث هو مستقره، وقد دنى من النبي ﷺ هذا الدنو فإن التصديق بهذا له قلوب خُلقت وأُهلت لمعرفته، ومن لم يتسع عطنه لهذا فهو أضيق أن يتسع للإيمان بالنزول الإلهي إلى السماء الدنيا كل ليلة وهو فوق سماواته على عرشه أ.هـــ الرسائل ج.

وقال ابن القيم أيضًا رحمه الله:

قال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة:

سمعت ابن أبي الدنيا يقول إن لله سبحانه من العلوم ما لا يُحصى يُعطي كُل واحد من ذلك ما لا يُعطي غيره.

لقد حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد القطان حدثنا عبد الله السهمي عن أبيه أن قومًا كانوا في سفر، فكان فيهم رجل يمر بالطائر فيقول هل تدرون ما يقول فيقولون: لا فيقول يقول كذا وكذا فيحيلنا على شيء لا ندري أصادق فيه أم كاذب إلى أن مروا على غنم وفيها شاة قد تخلفت على سخلة لها فجلعت تحنو عنقها إليها وتثفوا، فقال أتدرون ما تقول هذه الشاة قلنا: لا قال: تقول لسخلتها إلحقي لا يأكلك الذئب كما أكل أُختك عام أول في هذا المكان قال: فانتهينا إلى الراعي فقلنا ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا، قال: نعم ولدت سخلة عام أول فأكلها الذئب في هذا المكان، ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها وهو يرغو ويحنو عنقه إليها فقال: أتدرون ما يقول هذا البعير قلنا: لا قال: أنه يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وهو في سنامه قال: فلما أتيناهم قلنا يا

هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وأنه في سنامه قال: فأناخوا البعير وحطوا عنه فإذا هو كما قال.

فهذه الشاة قد حذرت سخلتها من الذئب مرة فخدرت وقد حذر الله سبحانه وتعالى ابن آدم من ذئبه مرة بعد مرة وهو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعاه ويبيت معه ويصبح.

قال تعالى: **﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [إبراهيم: ٢٢].

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

وقال دانيال النبي سألت الله وتضرعت إليه أن يبين لي ما يكون في بني إسرائيل، وهل يتوب عليهم ويرد عليهم ملكهم ويبعث فيهم الأنبياء أو يجعل ذلك في غيرهم، فظهر لي الملك بصورة شاب حسن الوجه، وقال السلام عليك يا دانيال إن الله يقول إن بني إسرائيل أغضبوني وتمردوا علي وعبدوا من دوني إلهًا آخر وصاروا بعد العلم إلى الجهل وبعد الصدق إلى الكذب، فسلطتُ عليهم بختنصر فسبى ذراريهم وهدم مساجدهم وكذلك يفعل من بعده بهم حتى أبعث

نبيًا من بني إسماعيل الذي بُشرت به هاجر وأرسلتُ إليها ملكي فبشرها وأوحي إلى ذلك النبي وأعلمه الأسماء وأزينه بالتقوى.

وأجعل البر شعاره والتقوى ضميره والصدق قوله: والوفاء طبيعته: والقصد سريرته والرشد سنته أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب، وناسخ بعض ما فيها، أسري به إلي وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو فأدنيه وأسلم عليه وأوحى إليه، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة، حافظًا لما استودع صادقًا فيما أمر لا غليظ ولا صخاب بالأسواق، رءوف بمن والاه رحيم بمن آمن به خشن على مضنْ عاداه، فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي فيكذبونه ويؤذونه.. إلخ.أ.هـــ من الجواب الصحيح.

فصل

وقال الشيخ أيضًا رحمه الله:

ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل فتعصم به فتقل آفاتُها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته.

فنقول اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل: المحبة والخوف والرجاء وأقواها للمحبة وهي مقصودة تُراد لذاتها لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.

فالخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق: فالمحبة تُلقي العبد في السير إلى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها

يكون سيره إليه.

والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره.

فإن قيل فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأي شيء يحرك القلوب قلنا يحركها شيئان أحدهما: كثرة ذكر المحبوب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾.

والثاني: مطالعة آلائه ونعمه قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾، فإذا ذكر العبدُ ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثًا: وكذلك الخوف يحركه آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه: وكذالك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء.

والكلام في التوحيد واسع وإنما الغرض مبلغ التنبيه على تضمنه الاستغناء بأوفى إشارة والله سبحانه وتعالى أعلم.أ.هـــ فتاوى ج١.

وقال أيضًا رحمه الله:

والصواب في هذا الباب وغيره مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته وأن كلماته لا نهاية لها، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى وإنما ناداه حين أتى لم يناده قبل ذلك، وأن صوت الرب سبحانه لا يماثل أصوات العباد كما أن علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم وأنه بائن من مخلوقاته بذاته وصفاته ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته: ولا في ذاته شيء من مخلوقاته.أ.هـــ فتاوي (١).

وقال ابن القيم رحمه الله:

القلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا، ومن كل شبُهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله. ولا يتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء.

شرك يناقض التوحيد: وبدعة تخالف السنة: ومن شهوة تُخالف الأمر: وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص وهذه الخمسة حجاب عن الله أ.هـــ. من الجواب الكافي.

ثم قال رحمه الله لأسباب شرح الصدر أمور:

قوة التوحيد والهدى والنور الذي يقذفه الله بقلب العبد والعلوم

النافعة، والإنابة إلى الله تعالى، ودوام ذكر الله والإحسان إلى الخلق والشجاعة، وإخراج دغل القلب وترك فضول النظر والكلام، والاستماع والمخالطة والأكل والنوم.

وأضداد هذه الصفات: سبب الهم والغم والضيق والحصر.

فصل

وقال الشيخ رحمه الله:

فقد تبين لك أن من أصل دروس دين الله وشرائعه وظهور الكذب والمعاصي هو التشبه بالكافرين، كما أن من أصل كل خير المحافظة على السنن وشرائع الأنبياء، ولهذا عظم وقع البدع في الدين ثم قال:

ولكن يتفطن بهذا أن البدع مظان النفاق: كما أن السنن شعائر الإيمان.أ.هـــ من الاقتفاء.

فصل

وقال الشيخ رحمه الله:

حدثني أبي عن ابن النحاس وأظنني سمعتُها منه: أنه رأى الشيخ عبد القادر في منامه وهو يقول إخبارًا عن الله تعالى: قال من جاءنا تلقيناه من بعيد، ومن تصرف بحولنا ألنا له الحديد، ومن تبع مرادنا أردنا ما يُريد ومن تَركَ من أجلنا أعطيناه فوق المزيد.أ.هـــ فتاوى.

فصل

ولما كان الشيخ رحمه الله تعالى في القلعة أرسل إليه خصومه رجلين بأن ينزل لهم عن القول في الاستواء على العرش، والقول في القرآن بأنه كلام الله ولا نُعلم أحدًا به، ونوقف السلطان على كلامك حتى تخرج من الحبس، فقال لهم: تدعونني أن أكتب بخطي أنه ليس على العرش إله يُعبد، ولا في المصاحف قرآن، ولا لله في الأرض كلام، ودق بعمامته الأرض وقام واقفًا ورفع رأسه إلى السماء، وقال اللهم إني أشهدك على أنهم يدعونني أن أكفر بك وبكتبك ورسلك وإن هذا الشيء لا أفعله، اللهم أنزل بهم بأسك الذي لا ترده عن القوم المجرمين ونفذت سهام الله فيهم، والله لتقلبن دولة بيبرس أسفلها أعلاها ويكون أعز من فيها أذلُ من فيها ولينتقمن الله من الكبير والصغير وكم أجد عليهم وما أدعو عليهم.

وبعد ذلك جاء رجل إلى الشيخ يقال له علي الغَّر فقال: رأيتُ في المنام كأن البحر زاد حتى دخل الماء في جميع طُرق البلد وهو أسود مثل القطران ويغلي مثل القدر على النار، وأنتَ وأصحابك على سفينة وتقول النجاة النجاة، وتقرأ قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾ الآية.

ثم بعد مدة أخبروه أنهم يريدون أن يسفروه فقال: أنا إن قتلتُ كانت لي شهادة، وإن نُفيت كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص لدعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن حبستُ كان متعبدًا لي، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت تقلبت على صوف، وأنا جنتي وبستاني في

صدري أينما رحتُ فهو معي لا يفارقني فيئسوا منه والحمد لله.

ولما أرادوا أن يسيروه إلى الإسكندرية جعل يدعو بدعاء الكرب وصار في وجهه نور وبهاء شيئًا عظيمًا، كأن وجهه شمع مثل العروس وأشرتُه إلى أهل الحبس حتى ينظروا إلى وجهه.

ثم جاءوا وقالوا بسم الله بسم الله فخرج، وركب من باب الحبس فقال له: إنسان يا حبيبي هذا مقام الصبر فقال الشيخ بل هذا مقام الحمد والشكر لله، إنه قد نزل على قلبي من الفرح والسرور ما لو قُسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم.أ.هـــ من ناحية في حياة الشيخ.

فصل

وقال ابن القيم رحمه الله بعد كلام سبق فيما يعرف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته قال بعد ذلك:

الثاني: أن يتجاوز هذا النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثم تفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر إلى سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاه بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافين من حول العرش لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير، والأمر ينزل من فوق بتدبير الممالك، والجنود التي لا يعلمها إلا الله ربها ومليكها، فينزل الأمر من فوق بإحياء قوم

وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك وتحويل نعمة من محل إلى محل، وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضر، ونصر لمظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورد آبق، وأمان خائف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكف لعدوان.

فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ في أقطار العوالم لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتباينها واتحاد وقتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرحًا لهيبته خاشعًا لعظمته عانيًا لفرقته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب والله المستعان.أ.هـــ مفتاح دار السعادة.

وقال أيضًا رحمه الله:

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى فيسقط منازعته باعث الدين بالكلية فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا: وله معهم حالتان:

إحداهما: أن يكون من جندهم واتباعهم وهذه حال العاجز الضعيف.

الثانية: أن يصير الشيطان من جنده وهذه حال الفاجر القوي المسلط والمبتدع الداعية فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر وهذه الحال هي حال جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء.

وجند أصحابها المكر والخداع والأماني الباطلة والغرور والتسويف بالعمل وطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل وهي التي قال النبي ﷺ «**العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»، وأصحاب هذه الحال أنواع شتى فمنهم المحارب لله ولرسوله الساعي في إبطال ما جاء به الرسول يَصد عن السبيل ويبغيها جهده عوجًا وتحريفًا ليصد الناس عنها:

ومنهم المعرض عما جاء به النبي ﷺ المقبل على دنياه وشهواتها فقط: ومنهم المنافق ذو الوجهين الذي يأكل بالكفر والإسلام ومنهم: الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب ومنهم: من إذا وعظ قال واشوقاه إلى التوبة ولكنها تعذرت علي فلا مطمع لي فيها، ومنهم من يقول ليس الله محتاج إلى صلاتي وصيامي وأنا لا أنجو بعملي والله غفور رحيم: ومنهم: من يقول ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته.أ.هـــ من الإغاثة.

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

وبالجملة فقرب الرب من قلوب المؤمنين وقرب قلوبهم منه معروف لا يجهل، فإن القلوب تصعد إليه على قدر ما فيها من الإيمان والمعرفة والذكر والخشية والتوكل، وهذا متفق عليه.اهـــ من الفتاوى.

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

والثالث: أن يتوب العبد من إعجابه بأعماله ورؤيته أنه فعلها وأنها حصلت بقوّته، وينسي فضل الله وإحسانه.

ولهذا قيل: تخليص الأعمال مما يفسدها أشد على العاملين من طول الاجتهاد: وهذا يبين احتياج الناس إلى التوبة دائمًا؛ ولهذا قيل هي مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره.اهـــ فتاوى ج (١١).

وقال الشيخ أحمد بن تيمية أيضًا رحمه الله:

الاستغفار يُخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، ومن العمل الناقص إلى العمل التام، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه: فإن العابد لله والعارف بالله في كل يوم بل في كل ساعة ولحظه يزداد علمًا بالله وبصيرة في دينه، بحيث يجد ذلك في

طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله.اهـــ فتاوى ج (١١).

ثم قال رحمه الله تعالى:

وإياك والنظر في كتب أُهل الفلسفة واحذرهم. وعليك بصحبة اتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى وبراهين الإيمان أصحاب البصائر في الشبهات والشهوات: العالمين العاملين.اهـــ الفتاوى ج (١١).

فصل

وقال الشيخ رحمه الله تعالى:

وإن قيل بل الرحمة ما ينزل على قلوب قوام الليل في تلك الساعة من حلاوة المناجاة والعبادة وطيب الدعاء والمعرفة، وما يحصل في القلوب من مزيد المعرفة بالله والإيمان به وذكره وتجليه لقلوب أوليائه: فإن هذا أمر معروف يعرفه قُوّام الليل.

قيل له: حصول هذا في القلوب حق لكن هذا ينزل إلى الأرض إلى قلوب عباده لا ينزل إلى السماء الدنيا ولا يبقى بعد نزوله: وهذا الذي يوجد في القلوب هي أثار ما وصف به نفسه في نزوله بذاته سبحانه وتعالى وتقدس.اهـــ فتاوي.

فصل

ثم قال رحمه الله:

وأما الأوتاد فقد يوجد في كلام بعضهم يقول فلان من الأوتاد

ومعنى ذلك: أن الله يثب به من الدين والإيمان في قلوب من يهديهم الله به كل يثبت الأرض بأوتادها: وهذا ثابت لكل من كان بهذه الصفة فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة الكبيرة، ومن كان دونه كان بحسبه وليس ذلك محصورًا في أربعة ولا أقل ولا أكثر؛ بل جعله هؤلاء أربعة مضاهاة لقول المنجمين في أوتاد الأرض.اهـــ فتاوى.

فصل

ثم قال رحمه الله تعالى:

والله سبحانه وتعالى غني عن العرش وعن سائر المخلوقات لا يفتقر إلى شيء من مخلوقاته؛ بل هو الحامل بقدرته العرش وحملة العرش: فمن قال أنه في استوائه على عرشه محتاج إليه فهو كافر، وقد جعل الله العالم طبقات ولم يجعل أعلاها مفتقرا إلى أسفلها: فالسماء لا تفتقر إلى الهواء والهواء لا يفتقر إلى الأرض، فالعلي الأعلى رب السموات والأرض أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيء بحمل أو غير حمل.اهـــ فتاوى.

فصل

وقال الإمام ابن قيم الجوزي ذو الأحوال المرضية رحمه الله:

في البدائع:

سبحان من أنعم على الموجودات بإيجادها من غير طلب، فلما

وجدت بسطت أكف السؤال لطلب تكميلها، فالأجنة في بطون الأمهات تطلب تكميل الخلق، والبذر تحت التراب يطلب قوته من الري، ومنح الثمار ينتظر من فضله كمال نضجه، ومراكب البحار ترجو تحريكها بالرياح، وأصحاب البضائع ينتظرون وجود الأرباح عليهم، وطلاب العلم يسألون فتح مغلق الفهم، وأهل المجاهدة يرومون المعاونة على الطبع، والمظلوم يترقب طلوع فجر النصر، والمريض يتململ بين يديه طلبًا للطفه، والمكروب ينتظر كشف ما به، والخائف يترقب بريد الأمن، والأبدان المتمزقة في اللحود تنتظر جمع الشمل بعد الشتات، وعرائس الجنة يسألن سلامة بعولتهن وتعجيل اللقاء، فإذا الخلق قام من أطباق التراب بأنعاش البعث نكس صاحب الزلل رأس الندم طلبًا للعفو، ومد العابد يد التقاضي بالمسلم فيه عند حلول الأجل، وحدق الزاهد إلى جزاء الصبر، وأشرف المجد على أطلال الشوق إلى الحبيب، وصاح العارف بلسان الوجه إذ لم يبق وقت للصبر.اهــ.

فصل

قال شيخ الإسلام مفتي الأنام رحمه الله ورضي عنه:

قوله ﷺ: «**زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغربها، وسيبلغ ملك أمتي مازوي لي منها**».

وكان كما أخبر فبلغ ملك أُمته طرفي العمارة مشرقًا ومغربًا، وانتشرت دعوته في وسط الأرض كالإقليم الثالث والرابع والخامس؛ لأنهم أكمل عقولاً وأخلاقًا وأعدل أمزجة بخلاف طرفي

الجنوب والشمال، فإنهم نقصت عقولهم وأخلاقهم وانحرفت أمزجتهم، أما طرف الجنوب فإنه لقوة الحرارة احترقت أخلاطهم فاسودت ألوانهم وتجعدت شعورهم. وأما طرف الشمال فإنهم لقوة البرد لم تنضج أخلاطهم بل صارت فجة فأفرطوا في سبوط الشعر والبياض البارد الذي لا يستحسن.اهـــ من الجواب الصحيح.

وقال الشيخ أيضًا عفى الله عنه:

و لم يخالف أحدُ من المسلمين في وجود الجن، و لم ينكر الجن إلا الفلاسفة والأطباء الجهّال منهم:

والجن تتصور كثيرًا بصورة الكلب الأسود: وكذا بصورة القط الأسود. لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره وفيه قوة الحرارة.اهـــ فتاوى ج ١٧.

وقال رحمه الله في الاقتضاء:

ومن أصغى إلى كلام الله ورسوله بعقله وتدبره بقلبه وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدى والشفاء للقلوب والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام، لا منظومه ولا منثوره.

ومن اعتاد الدعاء المشروع في أوقاته كالأسحار وأدبار الصلوات والسجود ونحو ذلك أغناه عن كل دعاء مبتدع في ذاته أو في بعض صفاته.

فعلى العاقل أن يجتهد في اتباع السنة في كل شيء فإنه من يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه.اهـــ.

وقال رحمه الله:

فإن من تعلم العلم الذي بعث الله به رسوله ﷺ وعلمه لوجد الله كان صديقًا، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وقُتل كان شهيدًا، ومن تصدق يبتغي بذلك وجه الله كان صالحًا.اهـــ فتاوى.

وقال أيضًا رحمه الله: والمؤمنون من الأولين والآخرين مشتركون بالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، ولكن بينهم تفاوت بما في القلوب إذا ذكر الله وما في اليوم الآخر، وما في ذكر الجنة والنجاة من النار ونحو ذلك، يزداد الإيمان الواجب.اهـــ فتاوي.

فصل

وقال ابن القيم رحمه الله:

قال أبو بكر الكتاني:

جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى أيام المواسم فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًا، فقالوا هات ما عندك يا عراقي: فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفى شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه.

فإن كلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن حرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله: فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ، وقالوا: ما

على هذا مزيد جبرك الله يا تاج العارفين.اهـــ من المدارج.

فصل

وقال أيضًا رحمه الله:

من الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها: وهي عشرة.

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه به.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبين بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكر الله على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابّه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المحبة وميادينها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة الفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدي الله،

وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بآداب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقي أطايب الثمر، ولا يتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلم أن فيه مزيدًا لحاله ومنفعة لغيره.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخول على الحبيب: وملاك ذلك أمران:

الأول: استعداد الروح لهذا الشاب.

الثاني: انفتاح عين البصيرة وبالله التوفيق.اهـــ من المدارج.

فصل مهم

وقال رحمه الله:

وصحة الفهم، وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده بعد الإسلام؛ بل ما أُعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما؛ بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما وبهما يأمن العبد من طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أُمرنا

أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة.

وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى.اهـــ من الأعلام.

فصل

وقال مفتي الأنام وعلم الأعلام شيخ الإسلام أحمد بن تيميه رحمه الله:

واليهود بالغوا في اجتناب النجاسات وتحريم الطيبات. والنصارى استحلوا الخبائث وملابسة النجاسات، والمسلمون أحل الله لهم الطيبات خلافًا لليهود، وحرم عليهم الخبائث خلافًا للنصارى، واليهود يبالغون في طهارة أبداهم مع خبث قلوهم. والنصارى يدعون أهم يطهرون قلوهم مع نجاسة أبداهم. والمسلمون يطهرون أبداهم وقلوهم جميعًا، والنصارى لهم عبادات وأخلاق بلا علم ومعرفة ولا ذكاء، واليهود لهم علم ومعرفة بلا عبادات ولا أخلاق حسنة، والمسلمون جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح وبين الذكاء.اهـــ من الجواب الصحيح.

وقال في الاختيارات الفقهية:

وإن احتاج الإنسان إلى النكاح وخشي العنت قدمه على الحج

الواجب ثم قال رحمه الله: ويحرم النظر إلى النساء والمردان شهوة ومن استحله كفر إجماعًا وتحرم الخلوة بأمرد حسن، ومضاجعته كالمرأة الأجنبية ولو لمصلحة تعليم وتأديب.

والذي يقر يتيمه أو موليه عند من يعاشره لذلك فهو ملعون ديوث ومن عرف بمحبتهم أو معاشرهم مُنع من تعليمهم.

وقال رحمه الله:

(في صعود الملائكة والروح والعمل الصالح والأمر).

فإذا صعدوا إلى العرش فقد صعدوا إلى الله، وإن كانوا لم يروه ولما يساووه في الارتفاع في علوه.

فإنهم صعدوا من الأرض، وعرجوا بالأمر إلى العلو قال تعالى: ﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ**﴾، و لم يقل عنده.

ثم قال: وإثبات علو الله على خلقه سبحانه وتعالى من الصفات المعلومة بالسمع مع العقل والشرع.اهـــ فتاوى.

فصل

وقال الشيخ أيضًا رحمه الله:

وليس لأحد أن يتتبع عورات العلماء، ولا له أن يتكلم فيهم، فمن عدل عن الحجة إلى الظن والهوى فهو ظالم، وكذلك من آذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، ومن عظم حرمات الله وأحسن إلى خلقه فهو من أولياء الله.اهـــ فتاوى.

فصل

وقال أيضًا مفتي الأنام المتبع لصحيح الأخبار ﷺ: فكيف يتصور أن يكون الإنسان راضيًا؟ وليس معه من حلاوة الرضا ما يتحمل به مرارة المكاره؛ ولذا قالوا إن هذه المعاصي لها وجهان:

وجه إلى العبد من حيث إنها هي فعله وصنعه وكسبه.. ووجه إلى الرب سبحانه، من حيث أنه خلقها وقضاها وقدرها، فيرضى من الوجه الذي يضاف إلى الرب.

ولا يرضى من الوجه الذي يضاف إلى العبد؛ لكونها شرًا وقبيحة ومنه ومحرمة وسبب للعذاب والذم، وهذا مقام فيه من كشف الحقائق والأسرار ما قد ذكرناه في غير هذا الموضع.اهـــ فتاوى.

وقال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

ومن لم يحفظ القرآن ولم يعرف معانيه، ولا يعرف الحديث ولا معانيه، فمن أين يكون عارفًا بالحقائق المأخوذة عن النبي ﷺ؟.

ومن اتبع الرسول بغير بصيره ولا تبيين فهو مسلم بظاهره من غير أن يدخل الإيمان إلى قلبه. اهـــ فتاوى.

وقال قدس الله روحه:

وقد تكون الرحمة التي تنزل على الحجاج عشية عرفة، وعلى من شهد الجمعة تنتشر بركاته إلى غيرهم من أهل الأعذار، فيكون لهم نصيب من إجابة الدعاء، وحظ مع من شهد ذلك كما في شهر

رمضان.اهـــ. فتاوى ج ١.

وقال رحمه الله:

والمقصود أن النصارى يحبون أن يكون في المسلمين ما يشابهونهم به؛ لئلا ينفر المسلمون منهم، ولهذا جاءت الشريعة بمخالفة اليهود والنصارى.اهـــ فتاوى.

وقال أيضًا:

وروي في الخبر أن الله سبحانه ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة. اهـــ. فتاوى.

وقال رحمه الله وعفى عنه:

والشرك غالب على النفوس.

وكثيرًا ما يخالط النفوس من الشهوات ما يفسد عليها دينها كله، قال شداد بن أوس: «أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية، قال أبو داود هي حب الرياسة.اهـــ فتاوى».

وقال قدس الله روحه:

إذا اشتبه عليك هل هذا الفعل مما يهجر عليه المسلم أم لا فالواجب عليك ترك الهجر لقوله ﷺ: «**ادرؤوا الحدود بالشبهات**» فإنك إن تخطئ في العفو خير لك من أن تخطئ في العقوبة.اهـــ فتاوى.

وقال الإمام المكرم شيخ الإسلام المعلم رحمه الله:

وحسن القصد من أعون الأشياء على نيل العلم وإدراكه،

والعلم الشرعي من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح: فإن العلم قائد، والعمل سائق، والنفس حرون، فإن توانى قائدها لم تستقم لسائقها، وإن توانى سائقها لم تستقم لقائدها، فإذا ضعف العلمُ حار السالك و لم يدري أين يسلك.اهـــ فتاوى.

الرسالة التبوكية

رحم الله مؤلفها

تأليف

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزي
رحمه الله

٦٩١-٧٥١

الطبعة السادسة

نشرها محمد السليمان العليط

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة التبوكية رحم الله مؤلفها وعفى عنه،

بك اللهم نستعين وعليك نتوكل

قال الشيخ الإمام العالم محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية رضي الله عنه وأرضاه في كتابه الذي سيره من تبوك ثامن المحرم سنة ثلاث وثلاثين وسبع مائة بعد كلام سبق:

وبعد أحمد الله بمحامده التي هو لها أهل، والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ.

وبعد

فإن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [المائدة: ٢].

وقد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم بعضهم بعضًا وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين، وهذين الواجبين واجب بينه وبين ربه، وواجب بينه وبين الخلق.

فأما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونًا على مرضاة الله

وطاعته التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله. وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر إما تضمنًا وإما لزومًا ودخوله فيه تضمنًا أظهر؛ لأن البر جزء مسمى التقوى وكذلك التقوى فإنه جزء مسمى البر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الافتراق لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر.

ونظير هذا. لفظ الإيمان والإسلام والإيمان والعمل الصالح والفقير والمسكين والفسوق والعصيان والمنكر والفاحشة ونظائره كثيره، وهذه قاعدة جليلة مَنْ أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على طوائف من الناس.

ولنذكر من هذا مثالاً واحدًا يستدل به على غيره وهو البر والتقوى، فإن حقيقة البر هو المال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه، والخير كما يدل عليه انشقاق هذه اللفظة وتعاريفها في الكلام.

ومنه البُر بالضم لمنافعه وخيره بالإضافة إلى سائر الحبوب، ومنه رجل بار وبر وكرام برره والأبرار.

فالبر كلمة جامعه لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد، وفي مقابلته الإثم وفي حديث النواس بن سمعان أن النبي ﷺ قال له: «**جئت تسأل عن البر والإثم**» فالإثم كلمة جامعة للشر والعيوب التي يذم العبد عليها فيدخل في مسمى البر الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة، ولا ريب أن التقوى جزء هذا المعنى.

وأكثر ما يعبر عن بر القلب وهو وجود طعم الإيمان وحلاوته،

وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامته وانشراحه وقوته وفرحه بالإيمان، فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولذة في القلب فمن لم يجدها فهو فاقد الإيمان أو ناقصه وهو من القسم الذي قال الله فيهم: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٤٠].

فهؤلاء على أصح القولين مسلمون غير منافقين وليسوا بمؤمنين إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فيباشرها حقيقة.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى خصال البر في قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٧].

فأخبر سبحانه وتعالى: أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة، وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين. حقائقه وشرائعه وأعماله المتعلقة بالجوارح والقلب وأصول الإيمان الخمس، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن هذه أنها هي خصال التقوى بعينها

فقال: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾

وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعته إيمانًا واحتسابًا أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنهي وخوفًا من وعيده، كما قال طلق بن حبيب «إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى» قالوا: ما التقوى قال: «أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجوا ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله» وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى.

فإن كل عمل لا بد له من مبدأ وعناية فلا يكون العمل طاعة وقربه حتى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا عادة ولا هوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك.

بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب.

ولهذا كثيرًا ما يفرق بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا**» «**ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا**» ونظائره.

فقوله: «على نور من الله» إشارة إلى الأصل الأول وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه.

وقوله: «ترجوا ثواب الله» إشارة إلى الأصل الثاني وهو الاحتساب وهو الغاية التي لأجلها يوقع العمل ولهذا يقصد به، ولا ريب أن هذا اسم لجميع أصول الإيمان وفروعه وأن البر داخل في

هذا المسمى.

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾ فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها، فإن البر مطلوب لذاته، إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدم.

وأما التقوى فهي الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه ولفظها يدل على هذا، فإنها فُعلى من وقى يقي وكان أصلها وقوي فقلبوا الواو تاء كما قالوا تُراث من الوارثة وتجاه من الوجه وتخمة من الوخمة ونظائرها فلفظها دال على أنها من الوقاية.

فإن المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية من باب دفع الضرر فالتقوى والبر كالعافية والصحة.

وهذا باب شريف ينتفع به انتفاعًا عظيمًا في فهم ألفاظ القرآن ودلالته ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ، فإنه هو العلم النافع وقد ذم الله تعالى في كتابه من ليس له علم بحدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ.

فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين إحداهما: أن يدخل في مسمى اللفظ ما ليس منه فيحكم له بحكم المراد في اللفظ فيساوي بين ما فرق الله بينهما.

والثانية: أن يخرج من مسمى اللفظ بعض أفراده الداخلة تحته فيسلب عنه حكمه فيفرق بين ما جمع الله تعالى بينهما، والذكي الفطن يتفطن لإفراد هذه القاعدة وأمثالها، فيرى أن كثيرًا من

الاختلاف أو أكثره إنما ينشأ من هذا الموضع، وتفصيل هذا لا يفي به كتاب ضخم.

ومن هذا لفظ الخمر، فإنه اسم شامل لكل مسكر فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه وينفي عنها حكمه.

وكذلك لفظ المسير[1] وإخراج بعض أنواع القمار منه. وكذلك لفظ النكاح وإدخال ما ليس في مسماه، وكذلك لفظ الربا وإخراج بعض أنواعه منه وإدخال ما ليس بربا فيه.

وكذلك لفظ. الظلم والعدل والمعروف والمنكر ونظائره أكثر من أن تُحصى. والمقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علمًا وعملاً.

فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه فاقتضت حكمة الرب سبحانه وتعالى أن جعل النوع الإنساني قائمًا بعضه ببعض معينًا بعضه لبعضه.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾، والإثم والعدوان في جانب النهي نظير البر والتقوى في جانب الأمر.

والفرق ما بين الإثم والعدوان كالفرق ما بين محرم الجنس ومحرم القدر، فالإثم ما كان حرامًا لجنسه. والعدوان ما حرم لزيادة في قدره وتعدي ما أباح الله منه، فالزنا وشرب الخمر والسرقة ونحوها إثم، ونكاح الخامسة واستيفاء المجني عليه أكثر من حقه ونحوه عدوان.

---

(1) لعلها الميسر.

فالعدوان. هو تعدي حدود الله التي قال فيها: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾.

وقال في موضع آخر: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾ فنهى عن تعديها في آية وعن قرباها في آية.

وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه وتارة لا تكون داخلة فيه فتكون لها حكم المقابلة، فبالاعتبار الأول نهى عن تعديها وبالاعتبار الثاني نهى عن قرباها.

فصل

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس وهو أن تكون مخالطته لهم تعاونًا على البر والتقوى علمًا وعملاً.

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالى: فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته وهو قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾.

فأرشدت الآية ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق وواجبه بينه وبين الحق، ولا يتم أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر.

ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين والقيام له بالله إخلاصًا وعبودية.

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة التي كل خلل يدخل على العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو من عدم مراعاتها علمًا وعملا،

وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر قدس الله روحه.

«كن مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا نفس»، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبط ولم يزل أمره فُرطًا. والمقصود بهذه المقدمة ما بعدها.

فصل

في الهجرة إلى الله ورسوله

لما فصل عير السفر واستوطن المسافر دار الغربة، وحيل بينه وبين مألوفاته وعوائده المعلقة بالوطن ولوازمه أحدث له ذلك نظرًا، فأجال فكره في أهم ما يقطع به منازل السفر إلى الله وينفق بقية عمره، فأرشده من بيده الرشد إلى أهم شيء يقصده، إنما هو الهجرة إلى الله ورسوله فإنها فرض عين على كل أحد في كل وقت، وأنه لا انفكاك لأحد عن وجوبها وهو مطلوب الله ومراده من العباد إذ الهجرة هجرتان.

الهجرة الأولى: هجرة بالجسم من بلد إلى بلد وهذه أحكامها معلومة، وليس المراد الكلام فيها.

والهجرة الثانية: الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ﷺ وهذه هي المقصودة هنا، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقة وهي الأصل وهجرة الجسد تابعة لها.

وهي هجرة تتضمن (من) و (إلى) فيها هجر بقلبه من محبة غير

الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له.

وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾، والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه وتحت (من) و (إلى) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد فإنما أوجبته مشيئته الله وحده فإن ما شاء كان ووجب بمشيئة الله وقدره فهو في الحقيقة فار من الله إليه.

ومن تصور هذا حق تصوره فهو معنى قوله ﷺ لا ملجأ ولا منجي منك إلا إليك.

فإنه ليس في الوجود شيء يفر منه ويستعاذ منه ويلتجأ منه إلا هو من الله خلقًا وإبداعًا.

فالفار والمستعيذ فار مما أوجده قدر الله وخلقه إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه. ومستعيذ بالله منه، وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفًا ورجاء ومحبة، فإنه إذا علم أن الذي يفر

منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق خوف من غير خالقه وموجوده فتضمن إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء، ولو كان فرارًا مما لم يكن بمشيئته وقدرته لكان ذلك موجبًا لخوفه منه مثل من يفر من مخلوق إلى مخلوق آخر أقدر منه.

فإنه في حال فراره من الأول خائف منه حذرًا؛ لأن لا يكون الثاني يفيده منه بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضى وقدر وشاء ما يفر منه، فإنه لا يبقى في القلب التفات إلى غيره، فتفطن لهذا السر العجيب في قوله: «أعوذ بك منك» ولا «لا ملجأ ولا منجي منك إلا إليك» فإن الناس قد ذكروا في هذا أقوالا، وقل من تعرض منهم لهذه النكتة التي هي لبُ الكلام ومقصوده وبالله التوفيق.

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه وهو معنى الهجرة إلى الله ولهذا قال النبي ﷺ:«**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه**».

ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة في غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود أن الهجرة إلى الله تتضمن. هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لا بد أن يكو ما يهاجر إليه أحب مما هاجر منه فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر.

وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلى خلاف ما

يحبه الله ويرضاه وقد بُلي بهؤلاء الثلاثة فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه في كل وقت أن يهاجر إلى الله ولا ينفك من هجرته إلى الممات.

فصل

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علمًا ولا يُحرك لها إرادة.

والذي يقضي منه العجب إن المرء يوسع الكلام ويفرع المسائل في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به في العمر أصلا. وأما الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس فإنه لا يحصل فيها علمًا ولا إرادة وما ذاك إلا للإعراض عما خُلق له والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره.

وهذه حال من عشت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال. والله المستعان وبه التوفيق لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فصل

وأما الهجرة إلى رسول الله ﷺ فعلم لم يبق منه سوى اسمه ومنهج لم تترك بنيات الطريق سوى رسمه، سفت عليها السوافي

فطمست رسومها، وغارت عليها الأعادي فغورت مناهلها وعيونها، فسالكها غريب بين العباد، فريد بين كل حين وناد، بعيد على قرب المكان وحيد على كثرة الجيران، مستوحش مما به يستأنسون، مستأنس مما به يستوحشون، مقيم إذا ظعنوا ظاعن إذا قطنوا، منفرد في طريق طلبه لا يقر قراره حتى يظفر بأربه فهو الكائن معهم بجسده البائن منهم بمقصده، نامت في طلب الهدى أعينهم وما ليل وطنه بنائم، وقعدوا عن الهجرة النبوية وهو في طلبها مُشمر قائم، يعيبونه بمخالفة آرائهم ويزرئون عليه إزرائه على جهالتهم وأهوائهم، قد رجموا فيه الظنون وأحدقوا فيه العيون وتربصوا به ريب المنون ﴿**فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ**﴾ ﴿**قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾.

نحـــن وإيـــاكم نمـــوت فمـــا أفلح عند الحساب مـــن نـــدمًا

والمقصود أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد وطريقها على غير المعتاد[1] بعيد.

بعيد على كسلان أو ذي ملالة وأما على المشتاق فهـــو قريـــب

ولعمر الله ما هي إلا نور يتلألأ ولكن أنت ظلامه، وبدر أضاء مشارق الأرض ومغاربها ولكن أنت غيمه وقتامه، ومنهل عذب صاف وأنت كدره، ومبتدأ لخير عظيم ولكن ليس عندك خبره، فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدلالة عليها، وحاسب ما بينك وبين الله هل أنت من المهاجرين لها أو المهاجرين إليها؟ فحد هذه الهجرة

(١) في نسخة المشتاق.

سفر النفس في كل مسألة من مسائل الإيمان، ومنزل من منازل القلوب، وحادثة من حوادث الأحكام إلى معدن الهدى، ومنبع النور المتلقى من فم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فكل مسألة طلعت عليها شمس النبوة وإلا فاقذف بها في بحر الظلمات.

وكل شاهد عدله هذا المزكي وإلا فعده من أهل الريب والتهمات فهذا حد هذه الهجرة فما للمقيم في مدينة طبعه وعوائده القاطن في دار مرباه ومولده القائل إنا على طريقة آبائنا سالكون وإنا بحبلهم متمسكون وإنا على آثارهم مقتدون، وما لهذه الهجرة التي كلت عليهم واستند في طريق نجاحه وفلاحه إليهم معتذرًا بأن رأيهم خير من رأيه لنفسه وأن ظنونهم وآراءهم أوثق من ظنه وحدسه، ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه الكلمة لوجدتها صادرة عن الإخلاد إلى أرض البطالة متولدة بين الكسل وزوجه الملالة.

والمقصود: إن هذه الهجرة فرض على كل مسلم. وهي مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله كما أن الهجرة الأولى مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وفي هاتين الهجرتين يُسأل كل عبد يوم القيامة وفي البرزخ، ويطالب بها في الدنيا ودار البرزخ ودار القرار.

قال قتادة: كلمتان يُسأل عنها الأولون والآخرون. ماذا كُنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين. وهاتان الكلمتان مضمون الشهادتين. وقد قال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ**

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

فأقسم سبحانه بأجل مقسم به وهو نفسه عز وجل على أنه لا يثبت لهم الإيمان ولا يكونون من أهله حتى يحكموا رسول الله ﷺ في جميع موارد النزاع في جميع أبواب الدين، فإن لفظة (ما) من صيغ العموم فإنها موصولة تقتضي نفي الإيمان أو يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم، ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه، حيث لا يجدون في أنفسهم حرجًا وهو الضيق والحصر، من حكمه بل يقبلون حكمه بالانشراح ويقابلوه بالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض ويشربونه على قذى فإن هذا مناف للإيمان؛ بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر.

ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر في حاله ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه في المسائل الكبار وما دونها **﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾**.

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو ترد؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها؟ وكم من شجي في حلوقهم منها ومن موردها ستبدوا لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تُبلى السرائر؟ ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى: **﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾**، فذكر الفصل مؤكدًا بمصدره القائم مقام ذكره مرتين وهو التسليم والخضوع له والانقياد لما حكم به طوعًا ورضا وتسليمًا لا قهرًا ومصابرة، كما يسلم المقصود لمن قهره كرهًا بل تسليم عبد مطيع

لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء له، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه، ويعلم بأنه أولى به من نفسه، وأبر به منها وأرحم به منها وأنصح له منها، وأعلم بمصالحه منها، وأقدر على تخليصها فمتى علم العبد هذا من الرسول ﷺ واستسلم له وسلم إليه، انقادت له كل علة في قلبه ورأى أن لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد، وليس هذا مما يحصل معناه بالعبادة بمعناه ولا مطمع في حصوله بالدعوة والأماني، وكل يدعي وصلا لليلي وليلي لا تقر لهم بذاك، وفرق بين علم الحب وحال الحب فكثيرًا ما يشتبه على العبد الشيء بحاله ووجوده، وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال وهو مثخن بالمرض وبين الصحيح السليم وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها، وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده، وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنى المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد أولها، لتصديرها يتضمن المقسم عليه للنفي وهو قوله ﴿**لَا يُؤْمِنُونَ**﴾، وهذا منهج معروف في كلام العرب إذا أقسموا على شيء منفي صدروا جملة القسم بأداة نفي مثل هذه الآية، ومثل ما في قول الصديق رضي الله عنه (لاها الله) لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه وقول الشاعر:

فـــلا وأبيـــك ابنـــة العـــامري لا يـــدعى القـــوم إني أفـــر

وقال الآخر:

فـــلا والله لا يُلقـــي مـــا بي ولا لمـــا بهـــم أبـــدًا دواء

وهذا في كلامهم أكثر من أن يذكر، وتأمل جمل القسم التي في

القرآن المصدرة بحرف النفي كيف تجد المقسم عليه منفيًا ومتضمنًا للنفي؟ ولا يحرف هذا قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**﴾.

فإنه لما كان المقصود بهذا القسم نفي ما قاله الكفار في القرآن من أنه شعر أو كهانة أو أساطير الأولين، صدّر القول بأداة النفي ثم أثبت له خلاف ما قالوه فتضمنت الآية أن ليس الأمر كما يزعمون؛ لكنه قرآن كريم ولهذا صرح بالأمرين. النفي والإثبات مثل قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ**﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ**﴾، والمقصود أن افتتاح هذا القسم بأداة النفي تقوية المقسم عليه وتأكيده وشدة انتفاءه، وثانيها تأكيده بنفس القسم، وثالثها تأكيده بالمقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة، ورابعها تأكيده بانتفاء الحرج وهو وجود التسليم، وخامسها تأكيد الفعل بالمصدر وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم وأنه مما يعتني به ويقرر في نفوس العباد بما هو أبلغ أنواع التقدير، وقال تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾، وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه

فليس من المؤمنين، ولهذه الأولوية أمورًا منها أن يكون أحب إلى العبد من نفسه؛ لأن الولاية أصلها الحب ونفس العبد أحب له من غيره ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها وأحب إليه منها فبذلك يحصل له اسم الإيمان ويلزم من هذه الولاية، والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه، ومنها أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول ﷺ الذي هو أولى به منها فيا عجبًا كيف تحصل هذه الولاية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم ورضي بحكم غيره، والاطمئنان إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول ﷺ وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته وإنما يُتلقى من دلالة العقول، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه وعما جاء به، والحوالة من العلم النافع إلى غيره وذلك هو الضلال البعيد، ولا سبيل إلى ثبوت هذه الولاية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء، وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به فإن شهد له بالصحة قبله وإن شهد له بالبطلان رده، وإن لم تتبين له شهادته لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين له أي الأمرين أولى به، فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة، ومن العجب أن يدعي حصول هذه الولاية

والمحبة التامة من كان سعيه واجتهاده و نصبه في الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها والغضب والمحبة لها والرضا بها والتحاكم إليها وعرض ما قاله الرسول ﷺ عليها فإن وافقها قبله وإن خالفها التمس وجوه الحيل وبالغ في ردها ليًا وإعراضًا كما قال تعالى: **﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾**.

وقد اشتملت هذه الآية على أسرار عظيمة يجب التنبيه على بعضها لشدة الحاجة إليها قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾**.

وقد اشتملت هذه الآية على أسرار عظيمة يجب التنبيه على بعضها لشدة الحاجة إليها قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾**، فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية وهذا أمر بالقيام في حق كل أحد عدوًا كان أو وليًا، وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب إذ هي متعلقة بأمر الله وخبره، فالقيام فيها بالهوى والعصبية مضاد لأمر الله مناف لما بعث به رسوله ﷺ والقيام فيها بالقسط وظيفة خلفاء الرسول ﷺ في أمته وإثباته بين أتباعه، ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل

المحض نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولعباده، وأولئك هم الوارثون حقًا، لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معيارًا على الحق وميزانًا له، ويعادي من خالفه، ويوالي من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كل أحد وهو في هذا الباب أعظم فرضًا وأكبر وجوبًا، ثم قال تعالى: ﴿**شُهَدَاءَ لِلَّهِ**﴾ الشاهد هو المخبر فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور، وأمر تعالى أن يكون شهيدًا له مع القيام بالقسط وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط وأن تكون لله لا لغيره، فتضمنت الآيتان أمورًا أربعة أحدهما القيام بالقسط الثاني أن يكون لله الثالث الشهادة بالقسط الرابع: أن تكون لله.

واختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن ليس هذا موضع ذكره ثم قال تعالى: ﴿**وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾ فأمر سبحانه أن يقام بالقسط وليشهد على كل أحد ولو كان أحب الناس إلى العبد، فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه الذين هما أصله، وأقاربه الذين هم أخص به والصديق من سائر الناس، فإن كان ما في العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبله، فإنه لا يقوم به في هذا الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما، وهذا يمتحن به العبد إيمانه فيعرف منزلة الإيمان من قلبه ومحله عنه، وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يجفوه، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم كما لا

ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط، فلا يدخله ذلك البغض في باطل ولا يقصر به هذا الحب عن الحق قال بعض السلف: العادل هو الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق، فاشتملت الآيتان على هذين الحكمين وهم القيام بالقسط والشهادة به على الأولياء والأعداء، ثم قال تعالى: ﴿**إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا**﴾ منكم هو ربهما وموطهما وعبيده كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنيًا لغناه، ولا فقيرًا لفقره فإن الله أولى بهما منكم، وقد يقال فيه معنى آخر أحسن من هذا وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغني والفقير، أما الغني فخوفًا على ماله وأما الفقير فلإعدامه وأنه لا شيء له فتتساهل النفوس في القيام عليه بالحق، فقيل لهم والله أولى بالغني والفقير منكم أعلم بهذا وأرحم بهذا فلا تتركوا أداء الحق والشهادة على غني ولا فقير، ثم قال تعالى: ﴿**فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا**﴾ نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل وقوله تعالى: ﴿**أَنْ تَعْدِلُوا**﴾ منصوب الموضع؛ لأنه مفعول لأجله وتقديره عند البصريين كراهية أن تعدلوا أو حذر أن تعدلوا فيكون اتباعكم للهوى كراهية العدل أو فرارًا منه، وعلى قول الكوفيين التقدير أن لا تعدلوا، وقول البصريين أحسن[1] ثم قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق محذرًا منهما ومتوعدًا عليهما أحدهما: الليُّ، والآخر: الإعراض فإن الحق إذا

(١) لعلها أحسن.

ظهرت حجته و لم يجد من يروم دفعها طريقًا إلى دفعها أعرض عنها وأمسك عن ذكرها.

فكان شيطان أخرس وتارة يلويها ويحرفها إلى مثال القتل وهو التحريف، وهو نوعان ليٌّ في اللفظ، وليٌّ في المعنى، فالليُّ في اللفظ: أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها، وليٌّ في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظًا وإرادة غيره، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ وغيره فهذا أحد نوعي الليّ، والنوع الثاني منه ليٌّ المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم وبجهالة ما لم يرده أو يُسقط منه البعض المراد به ونحو هذا في لي المعاني فقال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾، ولما كان الشاهد مُطَالبًا بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها كان الإعراض نظير الكتمان والليُّ نظير تغييرها وتبديلها، فتأمل ما تحت هذه الآية من كنور العلم[1]، والمقصود أن الواجب الذي لا يتم الإيمان بل لا يحصل مسمى الإيمان إلا به مقابلة النصوص بالتلقي والقبول والإظهار لها ودعوة الخلق إليها، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللي أخرى وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾، فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك لا لمؤمن ولا مؤمنه أصلا، فدل على أن ذلك مناف

---

(1) لعلها من كنوز العلم.

للإيمان، وقد حكى الشافعي رضي الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول و لم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضي الله عنه، فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع فضلا أن يعارض النصوص وتقدمه عليها عياذًا بالله من الخذلان، وقال تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾ فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه، وليس هذا من دلالة المفهوم كما يغلط فيه كثير من الناس وأن يظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها إذا ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه وإلا لم يكن شرطًا له.

إذا ثبت هذا فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته، وفي إعادة الفعل في قوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ دون الاكتفاء بالفعل الأول سر لطيف وفائدة جليلة سنذكرها عن قريب إن شاء الله، وقوله تعالى: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ**﴾ الفعل للمخاطبين وأصله فإن تتولوا، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا والمعنى أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال: (من الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم) فإن تركتم أنتم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه، فإنه لم يُحمل إيمانكم، وإنما

حمل تبليغكم، وإنما حمل أداء الرسالة إليكم **﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾** [النور: ٥٤] ليس هداهم وتوفيقهم، وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾** [النساء: ٥٩]، فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر بأن المطلوب منهم موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به، كما يقال يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله أحسن كما أحسن الله إليك، ويا أيها العالم، علم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم، احكم بالحق ونظائره، ولهذا كثيرًا ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع، كقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾** [البقرة: ١٨٣] **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾** [الجمعة: ٩] **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾** [المائدة: ١] ففي هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا فإنه من موجبات الإيمان وتمامه ثم قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾** [النساء: ٥٩] فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر وسلط عليهما عاملاً واحدًا، وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضي عكس هذا فإن من يطع الرسول فقد أطاع الله؛ ولكن الواقع هنا في الآية المناسب وتحته سر لطيف وهو دلالته على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه، وإن لم يكن مأمورًا به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة فلا يتوهم

متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن وإلا فلا تجب طاعته فيه كما قال النبي ﷺ: «**يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه**» أما أولي الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول لا طاعة مفردة مستقلة كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى، فإذا أمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة**» فتأمل اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ [النساء: ٥٩] ولم يقل وإلى الرسول، فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله وما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني كتابه فقد رددتموه إلى الله، وهذا من أسرار القرآن.

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أولى الأمر وعنه فيهم رحمه الله روايتان. أحدهما: أنهم العلماء، والثانية: أنهم الأمراء، والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعًا فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله ﷺ فإن العلماء ولاته حفظا وبيانًا وذبًا عنه وردًا على من ألحد فيه وزاغ عنه، وقد وكلهم الله بذلك فقال: ﴿**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾ [الأنعام: ٨٩] فيا لها من وكالة أوجبت لهم طاعتهم والانتهاء إلى

أمرهم وكون الناس تبعًا لما والأمراء ولاته قيامًا وعناية وجهادًا وإلزامًا للناس به وأخذهم على يد من خرج عنه، وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبعًا لهما ورعية، ثم قال تعالى: ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ**﴾ وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ**﴾، وهذا مما ذكرنا آنفًا أنه شرط ينتفي المشروط بانتفائه فدل على أن من حكّم غير الله ورسوله في مواد مقتضي النزاع كان خارجًا من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بيانا وشفاء، فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها، عاصمة للمتمسكين بها الممتثلين ما أمرت به، قال الله تعالى: ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٤٢] وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته والرد إلى سنته بعد وفاته ثم قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ أي هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولياء الأمر ورد ما تنازعتم فيه إلي وإلى رسولي خير لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين فهو خير لكم

وأحسن عاقبة، فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله هو سبب السعادة عاجلا وآجلا، ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول ﷺ وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول ﷺ وما يترتب عليه فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض.

فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجاء إليه كان من الناجين، فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والخروج عنه، وهذا برهان قاطع على أن لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا والقيام به عملا، وكمال هذه السعادة بأمرين آخرين أحدهما: دعوة الخلق إليه، والثاني: صبره واجتهاده على تلك الدعوة، فانحصر الكمال الإنساني على هذا المراتب الأربعة أحدهما: العلم بما جاء به الرسول ﷺ والثانية: العمل به، والثالثة: نشره في الناس ودعوهم إليه، والرابعة: صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه، ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقًا:

فإن شئت وصل القوم فاسلك سـبيلهم

فقـــد وضـــحت للســـالكين عيانًـــا

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿**قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ**﴾ فهذا نص صريح في أن هدي الرسول ﷺ إنما يحصل بالوحي فيا عجبًا كيف يحصل الهدي لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة به، ولكن ﴿**فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا**﴾ فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلان؟ أو قول زيد وعمر ولقد عظمت نعمت الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى والحمد لله رب العالمين وقال تعالى: ﴿**المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**﴾ فأمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره فما هو إلا اتباع المنزل واتباع أولياء من دونه فإنه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به، وقال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً**﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] فكل من اتخذ غير الرسول ﷺ يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول ﷺ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة؛ لهذا هذا الخليل كف عنه باسم فلان إذ لكل متبع أولياء من دون

الله فلان وفلان فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول ﷺ ومال تلك الخلة إلا العداوة واللعنة، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨] تمني القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قوله: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾، وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافيه وبالله التوفيق وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٧-٣٩] فليتدبر العاقل هذه الآيات وما

اشتملت عليه من العبر، وقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ**﴾ ذكر الصنفين المبطلين أحدهما: منشئ الباطل والفرية وواضعها وداعي الناس إليها، والثاني: مكذب بالحق، فالأول: كفره بالافتراء وإفشاء الباطل، والثاني: كفره بجحود الحق، وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل فإن انضاف إلى ذلك دعوته إلى باطله وصد الناس عن الحق، استحق تضعيف العذاب لكفره وشره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾ [النحل: ٨٨] فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين عذابًا بكفرهم وعذابًا بصدهم عن سبيله، وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعد العذاب كقوله تعالى: ﴿**وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ**﴾ يعني ينالهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا**﴾ زالوا وفارقوا وبطلت تلك الدعوة ﴿**وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ**﴾ ادخلوا في جملة هذه الأمم كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أداركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿**رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآَتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ**﴾ بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك قال الله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ ضِعْفٌ**﴾ من الاتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره ﴿**وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ لا تعلم كل طائفة بما في أختها من العذاب المضاعف ﴿**وَقَالَتْ أُولَاهُمْ**

لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل، وبينوا لكم الحق وحذروكم من ضلالنا، ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا وترك الحق الذي أتتكم به الرسل، فأي فضل كان لكم علينا وقد ضللتم كما ضللنا وتركتم الحق كما تركنا، فضللتم كما ضللنا نحن بقوم آخرين، فأي فضل كان لكم علينا **﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾** فلله ما أشفاها من موعظة وما أبلغها من نصيحة لو صادفت من القلوب حياة، فإن هذه الآية وأمثالها مما يذكر قلوب السائرين إلى الله، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر.

فصل

فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشتركين في الضلالة وأما الأتباع المخالفون لمتبوعيهم العادلون عن طريقتهم الذين يزعمون أنهم لهم تبع وليسوا متبعين لطريقتهم فهم المذكورون في قوله تعالى: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾** فهؤلاء المتبعون كانوا على هدى وأتباعهم أدعوا أنهم كانوا على طريقتهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهم يزعمون أنهم يحبونهم وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم فيتبرءون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم، وهذه حال كل من اتخذ من

دون الله ورسوله وليجة وأولياء يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضى لهم ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه إذا لم يجرد موالاته ومعاداته ومحبته وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب فينقطع يوم القيامة كل سبب وصلة ووسيلة ومودة وموالاة كانت لغير الله تعالى، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وبين ربه وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض والعطاء والمنع والموالاة والمعاداة والتقريب والإبعاد، وتجريد متابعة رسوله وترك أقوال غيره وترك ما خالف ما جاء به والإعراض عنه وعدم الاعتناء به، وتجريد متابعته تجريدًا محضًا بريئًا من شوائب الالتفات إلى غيره فضلا عن تقديم قول غيره عليه، فهذا هو السبب الذي لا ينقطع بصاحبه وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه وهي نسبة العبودية المحضة وهي آخيته التي يجول ما يجول ثم إليها مرجعه.

نقل فؤادك حيث شـئت مـن الهـوى
مـــا الحـــب إلا للحبيـــب الأول
كـــم منـــزل في الأرض يألفـــه الفـــتى
وحنينـــه أبـــدًا لأول منـــزل

وهذه هي النسبة التي تنفع العبد فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار فلا قوام له ولا عيش ولا نعيم ولا فلاح إلا بهذه النسبة وهي السبب الواصل بين العبد

وبين الله ولقد أحسن القائل:

إذا انقطـــــع حبـــــل الوصـــــل بينـــــهم
فللمحــــــبين حبـــــل غـــــير منقطـــــع

وإن تصـــــدع شمـــــل القـــــوم بينـــــهم
فللمحــــــبين شمـــــل غـــــير منصـــــدع

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله تعالى فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم وما عرفت إلا بهم ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾ فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه يجعلها الله هباءًا منثورًا لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة أن يرى سعيه كله ضائعًا لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله وقد سعد أهل السعي بسعيهم.

فصل

فهذا حكم اتباع الأشقياء فأما اتباع السعداء فنوعان اتباع لهم حكم الاستقلال وهم الذين قال الله عز وجل فيهم ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ**

اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فهؤلاء السعداء الذين ثبت لهم رضاء الله عنهم وهم أصحاب رسول الله ﷺ وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة، ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصًا عرفيًا ليتميزوا به عمن بعدهم فقيل التابعون مطلقًا لذلك القرن فقط. وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه ومقيد سبحانه وتعالى هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان وأن الباء ههنا للمصاحبة والإحسان في المتابعة شرط في حصول رضاء الله عنهم وجناته وقد قال الله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾**.

فالأولون هم الذين أدركوا رسول الله ﷺ وصحبوه، والآخرون هم الذين لم يلحقوهم وهم كل من بعدهم على منهاجهم إلى يوم القيامة فيكون التأخر وعدم اللحاق في الفضل والرتبة؛ بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في الرتبة، والقولان كالمتلازمين فإن من بعدهم لا يلحق بهم لا في الفضل ولا في الزمان، فهؤلاء الصنفان هم السعداء وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله ولم يرفع به رأسًا فهو من الصنف الثالث وهم **﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾**، وقد ذكر النبي ﷺ

أقسام الخلائق بالنسبة إلى دعوته وما بعث به من الهدي في قوله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدي والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في الدين فنفعه ما بعثني الله به، ومثل من لم يرفع رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**» فشبه ﷺ العلم الذي جاء به بالغيث؛ لأن كلاً منهما سبب الحياة فالغيث سبب حياة الأبدان والعلم سبب حياة القلوب وشبه القلوب بالأودية كما في قوله تعالى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾، وكما أن الأراضي ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث أحدها: يثمر النبت من كل زوج بهيج، فذلك مثل القلب الذكي فهو يقبل العلم بذكائه فيثمر فيه وجوه الحكم ودين الحق بذكائه فهو قابل للعلم مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه، والثانية: أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه فهذه تنفع الناس لورودها والسقي منها، والازدراع: وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذي يحفظه كما سمعه فلا تصرف فيه ولا استنبط؛ بل للحفظ المجرد فهو يؤدي كما سمع وهو من القسم الذي قال النبي ﷺ: «**فرب حامل فقه إلى من هو أفقه ورب حامل فقه غير فقيه**» فالأول: كمثل الغني التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات فهو يكسب بماله ما شاء. والثاني: مثل الغني الذي لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه، والأرض الثالثة: أرض قاع وهو

المستوي الذي لا يقبل النبات ولا يمسك ماء فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع منه بشيء، فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم والفقه والدراية، وإنما هو بمنزلة الأرض البوار التي لا تنبت ولا تحفر وهو مثل الفقير الذي لا مال له ولا يمسك مالا، فالأول عالم معلم وداع إلى الله على بصيرة فهو من ورثة الرسل، والثاني: حافظ مؤد لما سمعه فهذا يحمل لغيره ما يتجر به المحمول إليه ويستثمر، والثالث: لا هذا ولا هذا فهو الذي لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأسًا، فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق في الدعوة النبوية ومنازلهم منها قسمان: قسم سعيد وقسم شقي.

فصل

وأما النوع الثاني من الأتباع: فهم أتباع المؤمنين من ذريتهم الذين لم يثبت لهم حكم التكليف في دار الدنيا، وإنما هم مع آبائهم تبع لهم، وقال الله تعالى فيهم ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ أخبر سبحانه وتعالى أنه ألحق الذرية بأبائهم في الجنة كما أتبعهم إياهم في الإيمان ولما كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالى: ﴿**وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ والضمير عائد إلى الذين آمنوا أي وما نقصناهم من عملهم بل رفعنا ذريتهم إلى درجاتهم مع توفيتهم أجور أعمالهم، فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل بل وفيناهم أجورهم فألحقنا بهم ذريتهم فوق ما يستحقون من أعمالهم، ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب

والدرجات فضلاً من الله فربما وقع في الوهم أن إلحاق الذرية أيضًا حاصل لهم في حكم العدل، فلما اكتسبوا سيئات أوجبت عقوبة كان كل عامل رهينًا بكسبه لا يتعلق بغيره، فالإلحاق إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب، وهذا نوع من أسرار القرآن وكنوزه التي يختص الله بفهمها من شاء فقد تضمنت هذه الآية أقسام الخلائق كلهم أشقيائهم وسعدائهم، والسعداء المتبوعين والأتباع والأشقياء المتبوعين والأتباع، فعلمت العاقل الناصح لنفسه أن ينظر في أي الأقسام هو ولا يغتر بالعادة ويخلد إلى البطالة فإن كان من قسم سعيد انتقل إلى ما هو فوقه وبذل جهده والله ولي التوفيق والنجاح، وإن كان من قسم شقي انتقل منه إلى القسم السعيد في زمن الإمكان قبل أن يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً.

فصل

والمقصود بهذا أن من أعظم التعاون على البر والتقوى والتعاون على سفر الهجرة إلى الله والرسول باليد واللسان والقلب والمساعدة والنصيحة تعليمًا وإرشادًا ومودة. ومن كان هكذا مع عباد الله فكل خير إليه أسرع، وأقبل الله إليه بقلوب عباده، وفتح على قلبه أبواب العلم ويسره لليسرى، ومن كان بالضد فبالضد، فإن قلت أشرت إلى سفر عظيم وأمر جسيم فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه؟ قلت: زاده العلم الموروث عن خاتم الأنبياء ﷺ ولا زاد له سواه فمن لم يحصل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليقعد مع

الخالفين. فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا فله أسوة بهم ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئًا كما قال تعالى: ﴿**وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم ببعض في العذاب فإن مصائب الدنيا إذا عمت صارت مسلاة وتأسي بعض المصابين ببعض كما قالت الخنساء.

ولـــــولا كثـــــرة البـــــاكين حـــــولي
علـــــى إخـــــوانهم لقتلـــــت نفســـــي
ومـــا يبكـــون مثـــل أخـــي ولكـــن
أســـــلى الـــــنفس عنـــــهم بالتأســـــي

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشركين في العذاب يوم القيامة وأما طريقه: فهو بذل الجهد واستفراغ الوسع فلا ينال بالمُنى ولن يدرك بالهوينا، وإنما هو كما قيل:

فخض غمرات المـــوت واســـم إلى العـــلا
لكـــي تـــدرك العـــز الرفيـــع الـــدائم
فـــلا خـــير في نفـــس تخـــاف الـــردى
ولا همـــــة تصـــــبو إلى لـــــوم لائـــــم

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين أحدهما: أن لا يصبو في الحق إلا لوم لائم فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه ويجعله صريعًا في الأرض، والثاني: أن تهون عليه نفسه في الله فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال، فمتى خافت النفس تأخرت

وأحجمت وأخلدت إلى الأرض، ولا يتم له هذان الأمران إلا بالصبر فمن صبر قليلا صارت تلك الأهوال ريحًا رخاء في حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه، فبينما هو يخاف منها إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه، وأما مركبه فصدق اللجأ إلى الله تعالى والانقطاع إليه بكليته وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه والضراعة وصدق التوكل والاستعانة به والانطراح بين يديه انطراح المسلوم المكسور الفارغ الذي لا شيء عنده، فهو يتطلع إلى قيمه ووليه أن يجده ويلم شعثه ويمده من فضله ويستره، فهذا الذي يرجى له أن يتولى الله هدايته وأن يكشف له ما خفي على غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها.

فصل

ورأس الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله حيث تستولي على الفكر وتشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه، وصارت له التصرف وصار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره ويتضح له الطريق وتراه ساكنًا وهو يباري الريح ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾.

فصل

فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم، فافتح لي بابه

واكشف لي حجابه وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه، وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل في البيان غير ما ذكروه قلت: سأضرب لك أمثالاً تحتذي عليها وتجعلها إمامًا لك في هذا المقصود، قال الله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾ فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم. وإنما امرأته عجبت من ذلك فأخبرها الملائكة أن الله قال ذلك، و لم يتجاوز تدبرك غير ذلك فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار، وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم؟ وكيف جمعت الضيافة وحقوقها؟ وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة؟ وكيف تضمنت علمًا عظيمًا من أعلام النبوة؟ وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي ردها إلى العلم والحكمة، وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها؟ ثم أفصحت وقوعه، وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة؟ وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله، وعلى اليوم الآخر، وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله

إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة، وهم المؤمنون بها، وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات، فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ افتتح سبحانه هذه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد بها حقيقة الاستفهام ولهذا قال بعض الناس إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى قد التي تقتضي التحقيق، ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به وإحضار الذهن له، صدر له الكلام بأداة الاستفهام لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره (بألا) وتارة يصدره (بهل) فيقول هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكرًا به، وإما واعظًا مخوفًا، وإما منبهًا على عظمة ما يخبر به، وإما مقررًا له فقوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى**﴾ ﴿**هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ**﴾، و﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته. ففيه أمر آخر وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك فهل أتاك من غير علمنا وإرسالنا وتعريفنا. أم لم يأتك إلا من قبلنا، فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام وتأمل عظم موقعه من جميع موارده ليشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا، وقوله: ﴿**ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [الذاريات: ٢٤] متضمن لثنائه على خليله إبراهيم، فإن في المكرمين قولين أحدهما إكرام إبراهيم لهما ففيه مدح إبراهيم

بإكرام الضيف، والثاني: إنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى: ﴿**بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾، وهو متضمن أيضًا لتعظيم خليله يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش، وكان ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه؛ بل يقول ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا، الثاني قوله: ﴿**قَوْمٌ مُنْكَرُونَ**﴾ فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم، كما قال في موضع آخر ﴿**نَكِرَهُمْ**﴾، ولا ريب أن قوله منكرون ألطف من أن يقول أنكرتكم، وقوله: ﴿**فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ**﴾، والروغان الذهاب بسرعة والاختفاء وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه فلفظة ﴿**رَاغَ**﴾ تنفي هذين الأمرين وفي قوله: ﴿**إِلَى أَهْلِهِ**﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ولا يذهب إلى غير أهله إذ قرى الضيف حاصل عندهم وقوله تعالى: ﴿**فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ**﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح أحدها: خدمة ضيفه بنفسه فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه، الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لا يلتهم ببعضهم ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا. الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره وقوله: (إليهم) متضمن المدح وأدابًا أخرى وهو إحضار الطعام إلى بين يدي الضيف بخلاف من يهيئ الطعام في موضع، ثم يقيم ضيفه

فيورده عليه وقوله: ﴿**أَلَا تَأْكُلُونَ**﴾ فيه مدح وأدب آخر فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿**أَلَا تَأْكُلُونَ**﴾ وهذه صيغة عرض مؤذنه بالتلطف بخلاف من يقول ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا.

ونحو هذا وقوله تعالى: ﴿**فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**﴾؛ لأنه رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفًا أن يكون معهم شر. فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك ﴿**قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ**﴾، وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل، لأن امرأته عجبت من ذلك، فقالت عجوز عقيم يولد لمثلي فأنى لي الولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده، وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾، وهذه هي القصة نفسها، وقوله تعالى: ﴿**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا**﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها إذا بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار، وقوله تعالى: ﴿**عَجُوزٌ عَقِيمٌ**﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة ولم تذكر غيره وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب، وقوله تعالى: ﴿**قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ**﴾ فتضمن لإثبات صفة القول له وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾ متضمّن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه

وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام، والحكمة تتضمن كمال الإدارة والعدل والرحمة والجود والبر ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال الرسل وإثبات الثواب والعقاب كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثًا وسدى وباطلا فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب؛ ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته، ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك. وإنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه، ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها كافية شافيه موصلة إلى المطلوب بسرعة متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس، وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفرًا كبيرًا لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف وحسن البيان والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر ويكثر معه اليقين بخلاف غيره من الأدلة فإنها على العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل. والمقصود أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب

وحكمته، واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائها لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة، ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط وإرسال الحجارة المسومة عليهم، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عيانًا في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبر به عن ربهم، ثم قال تعالى: ﴿**فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاء الكلام فإن الإخراج هذا عبارة عن النجاة فهو إخراج نجاة من العذاب ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا وقوله تعالى: ﴿**فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط؛ وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة. فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا وليست من المؤمنين الناجين ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه موضعها تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول ويعلم

أنه تنزيل من حكيم حميد، وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور. وهو أن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس وتبين أن المسلمين المستثنيين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه بل هم المخرجون الناجون، وقوله تعالى: ﴿**وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ**﴾ فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ويخشى عذاب الله تعالى كما قال تعالى في موضع آخر ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ**﴾، وقال تعالى: ﴿**سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى**﴾ فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة، وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ، والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثاره وكنوزه ويعتبر بهذا غيره، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

فصل

والمقصود أن القلب لما تحول لهذا السفر طلب رفيقًا يأنس به في السفر فلا يجد إلا معارضًا مناقضًا. أو لائمًا بالتأنيب مُصرّحًا أو فارغًا من هذه الحركة مُعرّضًا، وليت كل ما ترى هكذا فلقد أحسن إليك من خلاك وطريقك ولم يطرح شره عليك كما قال

القائل:

إنـــا لفـــي زمـــان تـــرك القبـــيح بـــه
مـــن أكثـــر النـــاس إحســـان وإجمـــال

فإذا كان هذا المعروف من الناس فالمطلوب في هذا الزمان المعاونة على هذا السفر بالإعراض وترك اللائمة والاعتراض إلا ما عسى أن يقع نادرًا فيكون غنيمة باردة لا قيمة لها، ولا ينبغي أن لا يتوقف العبد في سيره على هذه الغنيمة بل يسير ولو وحيدًا غريبًا، فانفراد العبد في طريق طلبه دليل على صدق المحبة، ومن نظر في هذه الكلمات التي تضمنتها هذه الورقات علم أنها من أهم ما يحصل به التعاون على البر والتقوى وسفر الهجرة إلى الله ورسوله وهو الذي قصد سطرها بكتابتها وجعلها هديته المعجلة السابقة إلى أصحابه ورفقائه في طلب العلم ويشهد الله وكفى بالله شهيدًا.

ولو توافى أحدًا منهم لقابلها بالقبول ولبادر إلى تفهمها وعدها من أفضل ما أهدى صاحب إلى صاحبه، فإن غير هذا من جريان الركب الخير به وإن تطلعت النفوس إليها ففائدتها قليلة وهي في غاية الرخص لكثرة جالبها، وإنما الهدية النافعة كلمة يهديها الرجل إلى أخيه المسلم، ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء فإنه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده وليحذر من مرافقة الأحياء الذين هم في الناس أموات فإنهم يقطعون عليه طريقه فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة وأوفق له من هذه المفارقة، فقد قال بعض السلف شتان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم، فما على العبد أضر من

عشائره وأبناء جنسه فنظره قاصر وهمته واقفة عند التشبه بهم ومباهاتهم، والسلوك أين سلكوا؟ حتى لو دخلوا جحر ضب لأحب أن يدخله معهم فمتى صرف همته عن صحبتهم إلى صحبة من أشباحهم مفقودة ومحاسنهم وآثارهم الجميلة في العالم موجودة أتحدث بذلك همة أخرى وعملا آخر، وصار بين الناس غريبًا وإن كان فيهم مشهورًا ونسيبًا، ولكنه غريب محبوب يرى ما الناس فيه ولا يرون ما هو عليه، يقيم لهم المعاذير ما استطاع، ويحضهم بجهده وطاقته سائرًا فيهم بعينين عين ناظرة إلى الأمر والنهي بها يأمرهم وينهاهم ويواليهم ويعاديهم ويؤدي لهم الحقوق ويستوفيها عليهم وعين ناظرة إلى القضاء والقدر بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم ويلتمس وجوه المعاذير فيما لا يخل بأمر ولا يعود بنقض شرع. وقد وسعهم بسطته ورحمته ولينه ومعذرته واقفًا عند قوله: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ متدبرًا لما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم، فإن العفو ما عفى من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم فهذا ما منهم إليه وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف وهو ما تشهد به العقول وتعرف حسنه وهو ما أمر به، وأما ما يُتَقي به أذى جاهلهم فالإعراض عنه وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها فأي كما للعبد وراء هذا؟ وأي معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة؟ فلو فكر الرجل في كل شر يلحقه من العالم أعني الشر الحقيقي الذي لا يوجب له الرفعة

والزلفى من الله وجد سببه الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها وإلا فمع القيام بها كل ما يحصل له من الناس فهو خير له، وإن كان شرًا في الظاهر فإنه يتولد من الأمر بالمعروف ولا يتولد منه إلا خيرًا وإن ورد في حالة شر وأذى كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾، وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله تعالى وحق الخلق، فإنهم إما يسيئوا في حق الله وحق رسوله فإن أساءوا في حقك فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم وأستجلب قلوبهم وأستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم فإن ذلك أحرى في استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك بل توكل وامض لما عزمت عليه من أمرك، فإن الله يحب المتوكلين. فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أدّب الله بها رسوله ﷺ قال تعالى فيه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ قالت عائشة رضي الله عنها كان خلقه القرآن وهذا لا يتم إلا بثلاثة أشياء أحدها: أن يكون العود طيبًا فأما إن كانت الطبيعة جافية غليظة يابسة عسر عليها مزاولة ذلك علمًا وإرادة وعملا بخلاف الطبيعة المنقادة اللينة السلسة القيادة فإنها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر، الثاني: أن تكون النفس قوية قاهرة لدواعي البطالة والعي والهوى، فإن هذه الأمور تنافي الكمال. فإن لم تقوى النفس على قهرها وإلا لم تزل مغلوبة مقهورة، الثالث: علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين الشحم والورم والزجاجة والجوهرة،

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال وساعد التوفيق فهو من القسم الذي سبقت لهم من ربهم الحسنى وتمت لهم العناية والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا أبدًا إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين.

تمت هذه الرسالة النافعة بحمد الله ومنه.